ولايفوت القارىء الإحساس الذى يسمونه إيهام الواقع ، والارتباط المستمر بتفصيلات هذه الحارة ، وربما قارنها بشىء مما خطر له إن كان من أهل الريف . ولكن القيمة الحقيقية لمثل هذا العمل أن القارىء يعيش على مستويين لا على مستوى واحد . فهو لايفقد الصلة بالحارة من حيث هى طريق له وجود ومعالم خاصة ، ولكن القارىء يدرك من خلال هذه التفصيلات جميعا ثقافة الخوف . فالخوف له فكاهته ودوافعه ، وله أسباب ونتائج ، وله حماة يدافعون عنه .

هذه الحارة تبدو نظاما رهيبا ، ولكنه محكم منظم . ولايفكر أحد فى انتقاده أو تقييده . وكلما مر به طفل أو إنسان متفتح عانى منه ، وقد يتسخط عليه وإن جاز أن يطلب منه الرحمة .

تبدو الحارة ـ من بعض الوجوه ـ جذابة ، ولكن جاذبيتها غير إنسانية فهى لاتعطى للإنسان حرية الحركة ، ولنقل إن قدرتها على إثارة الخوف جزء لاينفصل عن هذه الجاذبية . ولأمر ما اجتمع فى الحديث عنها امرأة بدينة ، ومشربيات ، وآية الكرسى ، ووصفت آخر الأمر بأنها حارة لعينة . فالمرأة البدينة عائق ، والحارة عائق ، والمشربيات جميلة ولكنها عائق . . . وهكذا نجد نظام العوائق فى الثقافة غير الإنسانية أعلى . . ونجد روح الإنسان ، ورمزها الطفل ، معطلة مشتاقة إلى الفهم والحرية والثقة والتفاؤل .

على هذا النحو صور المازنى بغيته بطريق غير مباشر ، زعم لنا أننا كنا نعيش على نظام يغطى الخوف ببراقع الحسن والزينة . كنا نخلق عالما من الظلام الفاتن ونتمتع به ، ولانثور عليه .

قال المازنى : إننا نتعثر على الدوام ، ونبحث عن وجودنا الحر ، ولكننا ورثنا مالانحب ، وتطلعنا إلى ما لانحققه . وغاية ما يقال فى هذه الحارة أنها لعينة . هذا اللفظ الذى يدل على أن الحارة نظام يقهر روح الإنسان . وتخيل المازنى قارئه وقد جلس فوق شجرة جميز عتيقة عظيمة كثيرة الغصون ، وتخيله يهبط من النافذة الى الأرض على هذه الجميزة . وبعبارة أخرى تخيله طفلا يبقى على الشجرة ، ولكنه يستطيع أن يعبث بها أو يعلو عليها . يعلو الطفل على الأبنية الثقافية الهرمة وإن كان يجد فى نفسه نحوها بعض الوقار .